الفصل الثالث

بين الوفرة والندرة (من يملك ومن لا يملك):
التعبير الإمبريالي عن الذات الأمريكية

هاري مورغان رجل صلب العود، مستقل يعشق الحياة. همه الأول هو كسب أسباب العيش. يبقى هاري قانعاً بترك العالم يهتم بشؤونه طوال بقائه قادراً على متابعة مسيرته الخاصة. ليس شخصاً محايداً، بعيداً عن السياسة بمقدار ما هو عديم المبالاة بتعقيدات العالم بمجمله. أما حين يكون الأمر متعلقاً بأناس محدَّدين، فإن لدى هاري ما لا يمكن أن يطلق عليه سوى اسم قلب طيب ودافع للتسامح. يتعامل مع الناس بوصفهم أفراداً، يقبلهم كما هم، تاركاً إياهم يجترحون مصائرهم الخاصة، غير أنه يهتم حتى بأكثر الحالات تعرضاً للانسحاق، للتدمير الذاتي، وللبعث على اليأس. ثمة مجال في عالم هاري لإيدي، لذلك السكّير الذي كان إنساناً طيباً على ظهر قارب ذات يوم، تماماً مثلما تسوغ غريزة الإنصاف لديه استخدام هوراشيو بدولار واحد في اليوم لتطعيم شباك الصيد في قاربه، على الرغم من أن زبائنه يماحكون احتجاجاً على النفقة الإضافية. قد لا يكون هاري مولعاً بإصدار الأحكام، إلا أنه، دونما أي جدال، رجل له قاموسُه الخاص لقيم داخلية تحدد شخصيته. فهو ذلك النوع من الأشخاص الذين يلوذ الناس بهم في الأزمات. إنه من النوع الداهية، القوي، المرن؛ رجل قادر على تدبر أموره، على مواجهة الخطر والتصدي للمشكلات بأعصاب باردة. إنه إنسان جعلته الأفلام مألوفاً: إنه الماسة القاسية، البطل رغماً عنه الذي تضطره الظروف إلى الكشف عن نُبْله الفطري. ليس هاري مثالياً. وهو بطل

مُكرهاً تحديداً لأن قوته الداخلية لا تستثار إلا دفاعاً عمن هم أضعف منه،لمقاومة القمع الذي يرهب أولئك العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. لا يبالي هاري بالبحث عن الأسباب. ولكنه، حين يجد نفسه في مواجهة امتهان الحشمة والإنصاف، حين يعترض الطغيان، الفساد والشر سبيلَه، لا يستطيع أن يمكِّن هذه الموبقات من أن تمر. إن هاري مورغان هو بطل فلم بين الوفرة والندرة (من يملك ومن لا يملك) الذي أخرجه هاوارد هوكس سنة 1944.

يشتهر هذا الفلم المأخوذ من قصة إيرنست همنغواي ذات العنوان نفسه بأنه لوحة شخصيات محددة. لعل الأكثر جدارة بالملاحظة هو أن الفلم كان الجمع السينمائي الأول بين همفري بوغارت ولورن باكال ذات التسعة عشر ربيعاً، هذين الزوجين الموفرين لقدر واضح من الكيمياء الشخصية على الشاشة وبعيداً عنها سواء بسواء. ليس الفلم إلا استكشافاً كاوياً لسياسة الجنس من جانب المخرج الاستثنائي المتخصص بالأفلام الحصيفة، الذكية، الفطنة السابرة لأغوار آليات العلاقات بين الجنسين. فمن القرن العشرون (1934) إلى شاطئ البربر (1935)، تربية الأطفال (1938)، لا أجنحة إلا للملائكة (1939)، فتاته جمعة (فرايدي) (1940) وكُرة النار (1942)، مروراً بـ من يملك ومن لا يملك، النوبة الطويلة (1946)، كنت عريس حرب (1949)، شُغِّل سعادين (1952) والجنتلمان يفضل الشقراوات (1953)، كانت أطروحتا نساء متميزات بالخصوبة وسياسة الجنس محوريتين في أفلامه. ترعرع هوكس الذي هو ابن أسرة غنية في الغرب الأوسط في كاليفورنيا قبل التحاقه بدراسة هندسة الميكانيك في كورنل (جامعة كورنل). خدم في فوج الطيران التابع للجيش في الحرب العالمية الأولى، التي أَخْرَج عنها أفلاماً تأسيسية: دورية الفجر (1930)، الطريق إلى

المجد (1936) والرقيب يورك (1941). كذلك أخرج أفلام إجرام درامية مثل الوجه القبيح (سكارفيس) (1952)، وأفلام وَسْتَرْن مثل النهر الأحمر (1948) والـ ريو برافو (1959). وقد تعاون مع الكاتب الروائي وليم فوكنر، كما مع عدد كبير من أفضل الكتاب العاملين في هوليوود مثل جول فورمان، بن هشت، نونالي جونسون ولاي براكيت، على نحو منتظم. ومثل هاري مورغان إلى حد كبير، يُروى عن هوكس أنه قال: "لم أصرح قط. مهمتنا هي أن نسلّي. لا أبالي على الإطلاق بالانحياز إلى طرف أو آخر"؛ فدفع روبن وود إلى الإدلاء بالتعليق الآتي:

> لا يحاول هوكس في أي من أعماله أن يبدي أي اهتمام بالأفكار المجردة عن الشخصية، عن الحركة، وعن الوضع: لم يسبق له قط أن أبدى رغبة في إخراج فلم عن موضوع أخلاقي أو اجتماعي. ظل على الدوام متحرراً تماماً من ذلك النوع من الطموحات والادعاءات التي تؤدي أكثر الأحيان إلى إقحام المخرجين في صراع مع مصالح شركات الإنتاج التجارية. فأهمية أفلامه لا تنبع أبداً من المعالجة الواعية لموضوع بعينه[1].

مهما يكن، أو ربما لهذه الأسباب تحديداً، جاء فلم من يملك ومن لا يملك (بين الوفرة والندرة) أو (بين اليسر والعسر) أو (أغنياء وفقراء)(*) تتويجاً للميثولوجيا الأمريكية. فالفلم يبين بوضوح كيف تكون الميثولوجيا مؤصلة ومشفرة، ناشطة في أعماق الحركة، الشخصية والموقف، تحت رادار نوايا وأهداف واعية. وكذلك فإن الميثولوجيا تضطلع بدور حين لا يتم إبرازها بأحرف كبيرة بوصفها الرسالة الكبرى

(*) بدائل تبدو أنسب من العنوان (المترجم).

بل يجري بثها عبر مساحات نسيج ما هو اعتيادي وطبيعي. إن فلم من يملك ومن لا يملك مسرحية أخلاقية يمثلها شخصيات أرهقهم العالم مع أكثر من ملمح يتنافى مع الأخلاق، أسرى أحداث زمن لا أخلاقي. تحقق الرواية الأسطورية لقصة البطل رغماً عنه نجاحاً كبيراً لأنها شديدة الثانوية بالنسبة إلى العروض المبهرة للدراما الإنسانية؛ فهي تدس حزمة أفكارها المتماسكة على نحو لا شعوري. نحن ندرك أننا استمتعنا. أما الوقوف على المعاني المصاحبة للتسلية أو المتعة فيتطلب قدراً أكبر من الجهود الواعية.

تقوم الروايات الأسطورية ببناء الهويات، بمسْرَحة جملة القيم التي تحدد معنى للذات لا لأنها تصف، بالضرورة، أي شخص واقعي محدد، بل لأنها تعكس ذلك النوع من الأشخاص الذين نعتقد بأن علينا أن نكونهم، ذلك النمط من الأشخاص الذين نعتقد أن من واجبنا أن نكونهم، ذلك النموذج من الأشخاص الذين نتطلع إلى أن نكون مثلهم. تتولى الأساطير رسم شبكة مرجعيات قائمة على الخير والشر، على الأحسن والأفضل، تساعدنا في تصنيف الأحداث، في الاهتداء إلى التفسيرات وفي ترجمة ما هو جار. قد نتوق جميعاً لأن نكون أبطالاً ممتازين، غير أن قليلين من الأفراد الموصوفين بإتقان التوازن هم الذين يعتقدون فعلاً بأنهم، أو قادرون على أن يكونوا، أنماطاً حياتية على هذه الدرجة من الروعة. غير أن جميع الأبطال ليسوا أكبر من الحياة. فمن مهمات الأسطورة أن تمثل بطولة الحياة العادية المعاشة بنجاح، أن تمجّد مجموعة القيم والفضائل التي ينبغي لها أن تكون جزءاً من كل فرد لتمكينه وقت اللزوم من أن يكون بطلاً ويقف في صف الحق. وشخصية البطل رغماً عنه (البطل بالإكراه) جزء من مخزون الأسطورة الأمريكية، شخصية أولية يساعد حضورها على صياغة النفسية الأمريكية

وتشكليها، بطل في متناول اليد وقابل للإدارة، بطل من ذلك النوع الذي يجعل الناس يشعرون بالاطمئنان إلى أنفسهم؛ بطل واقعي، أقرب إلى وقائع الحياة اليومية وأكثر إنسانية بالتالي.

يملك هاري مورغان قارب صيد سمك، من ذلك النوع الذي يؤجَّر للسياح الراغبين في ممارسة رياضة الصيد. صحيح أن القارب مسجل في فلوريدا ولكن هاري يتابع مهنته في جزيرة المارتينيك الكاريبية، تلك الجزيرة التي هي جزء من جزر الهند الغربية الفرنسية في باحة أمريكا الخلفية. يبدأ الفلم في صيف 1940، "بُعَيْد سقوط فرنسا" باتت المارتينيك خاضعة لسيطرة حكومة فيشي، الحكومة الفرنسية الدُّمَية العميلة. قد يكون هاري مورغان مستاء من القيود الجزئية المفروضة من قبل السلطات، إلا أن مصير أوربا ومستعمراتها في ظل التحكم النازي ليس من اهتماماته. يقيم هاري في فندق الماركيز الذي يديره عضو في المقاومة المحلية للنازية يدعى "فرنتشي". يرغب الأخير في تشغيله بالأجرة لتهريب أعضاء بارزين في حركة فرنسا الحرة إلى الجزيرة. يرد هاري على الطلب قائلاً: "لا مجال... أنا راغب في خدمتك يا فرنتشي، ولكنني لا أستطيع تحمل تبعات الانخراط في سياستكم المحلية". نزيلة جديدة في الفندق هي ماري براوننغ، شابة أمريكية ذات خلفية نَطْوَطَة كوكبية مثيرة للريبة، حَطَّتْ بها الأيام في المارتينيك منكسرة وجانحة. الشيء الوحيد الذي يشغل بال هاري عندما يرى ماري التي يعطيها لقب سُلَيم (الناحلة) وهي تنشل سائحاً أمريكياً هو: "ينبغي أن تختاري للسرقة شخصاً لا يكون مديناً لي". وبعد رفض طلب آخر لمساعدة فرنسا، من وفد من قادة المقاومة هذه المرة، يقوم هاري بدفع سُلَيم إلى إعادة حافظة نقود السائح. وهذا السائح كان زبوناً جادل حول فاتورة حسابه وأصر على اضطراره للذهاب إلى البنك من أجل حل المشكلة.

وفي حقيقة الأمر، فإن هذه الحافظة تحتوي ما يكفي من الشيكات السياحية ـ إضافة إلى بطاقة سفر بالطائرة تثبت اعتزامه المغادرة دون تسديد الحساب. وهاري ليس أحمق. لحظة شروع السائح في توقيع شيكات الحساب، يصل عناصر الشرطة إلى المكان باحثين عن قادة المقاومة فتنشب معركة مسدسات. في زحمة الطلقات المتطايرة يُقتل السائح الأمريكي. يؤنبه هاري قائلاً: "لم يكن في الكتابة أسرع منه في المراوغة. لو عاش لحظة أخرى كانت تلك الشيكات موقَّعة وجاهزة للصرف". وهكذا فإن هاري وسْليم باتا، كليهما في ورطة، وأصبحا مضطرين للرد على أسئلة عناصر غستابو (مخابرات) نظام فيشي.

من هذا المنعطف، تحتل قصة الحب الملتهب بين هاري وسْليم، اللذين ينادي كل منهما الآخر باسم ستيف وسْليم (وهما اسما الدَّلَع اللذان كان هوارد هوكس وزوجه يستخدمانهما على ما يبدو) صدر المسرح. إنها رقصة أنيقة تضطلع المرأة فيها بدور القيادة، وتتوج بأكثر المشاهد السينمائية شهرة في الإغواء والإثارة. قبل طمأنة ستيف إلى أنه ليس ملزماً بأن يمثل معها أو يفعل أي شيء ـ سوى الصفير ربما تقول سْليم "بل هو أفضل حتى عندما تساعد. أنت تعرف كيف تصفّر أليس كذلك يا ستيف؟ فقط ضم شفتيك إلى بعضهما وانفخ"!.

غير أن خلف الأداء الموسيقي البارع، ثمة آلية أخرى تفعل فعلها. يشعر هاري بالمهانة إزاء الغطرسة المتجبرة لعناصر مخابرات فيشي وسوء المعاملة التي تلقاها سْليم على أيديهم. ومع أن هاري يستطيع أن يبتسم إزاء مساعيها على صعيد مراودة رجال آخرين، فإنه يرفض قبول المبلغ الذي تعرضه عليه نتيجة لما حصل. من أجل شراء بطاقة لسْليم الراغبة في مغادرة المارتينيك، يوافق هاري على مساعدة المقاومة: "أنا

الآن بحاجة إلى المال، لم أكن بحاجة إليه ليلة البارحة". ورغبة منه في حماية إيدي يخطط لعدم اصطحاب صديقه الحميم السكير، غير أن إيدي يخالفه الرأي ويستقل القارب متخفياً. تتعثر المهمة. قارب دورية أمنية يعترض القارب في رحلة العودة. وفيما يبادر الزعيم التابع لحركة فرنسا الحرة إلى النهوض تمهيداً للاستسلام، ينشغل هاري بإطلاق وابل من النيران على الأضواء الكاشفة لقارب الدورية لتعطيلها. يصاب زعيم المقاومة بجرح في أثناء تبادل النار. ينجح هاري في إيصال حمولته البشرية حسب الاتفاق ويعود إلى الفندق ليجد أن سُليم لم تستخدم بطاقة السفر آخر المطاف.

لقد تم جلب زعيم المقاومة الجريح إلى الفندق وهو بحاجة إلى معالجة طبية. مرة أخرى يكون هاري الرجل الذي يلوذ به الجميع. بعد ذلك تصل أنباء تقول إن عناصر المخابرات يُغْرِقون إيدي بالكحول ويطرحون عليه سيلاً من الأسئلة. يتدخل هاري بتفسير هادئ لرحلة صيد ليلية أخطأ فيها حين ظن قارب الدورية الأمنية قارب قراصنة. يطلب منه عناصر المخابرات أن يقدِّم معلومات مقابل مبلغ من المال ويرحل بعد ذلك. يقرر هاري أن وقت رحيلهم عن المارتينيك إلى الأبد قد حل.

أولاً يعاين وضع زعيم المقاومة الجريح، دي بورساك، الذي يرجوه أن يتولى إنجاز المهمة التي أتت به إلى الجزيرة: مهمة تحرير "وطني ذائع الصيت" من جزيرة الشيطان القريبة، قائلاً: "ليتني أستطيع استعارة طبيعتك لبعض الوقت، أيها القبطان. فأنت حين تواجه الخطر لا تفكر بأي شيء سوى الطريقة التي تمكِّنك من مراوغته. وكلمة "إخفاق" ليست واردة في قاموسك". غير أن هاري يبقى محصناً ضد الإقناع. أخيراً

يسلّم دي بورساك بأن هاري قد فعل ما يكفي: "هذه ليست حربه بعد. أرجو أن تصبح كذلك ذات يوم، لأننا نستطيع الاستفادة منه".

وفيما يكون هاري عاكفاً على الاستعداد للرحيل يصل الغستابو لإبلاغه بأن إيدي أصبح في الحجز، وهذه المرة سيجري سجنه بدلاً من إغراقه بالكحول لحفزه على الكلام. يصاب هاري بالذهول ويقول: "تعرفون ما سيترتب على ذلك..... لن يطيق ذلك، سينفجر". بهدوء ظاهر، يكرر هاري لعبة السيجارة وعود الثقاب الجانبية التي تخترق الفلم تعبيراً مجازياً عن العلاقة بينه وبين سُليم، يشهر مسدسه، يصيب أحد العناصر ويشل حركة الآخرين. أخيراً بات هاري متورطاً. لقد قلب الطاولات على مطارديه المزعومين يسوط قائد دورية الغستابو، الذي سبق له أن صفع سُليم ويستعد الآن لتعذيب إيدي، بالمسدس، لإجباره على ضمان إطلاق سراح إيدي وعلى توقيع تصاريح مرور للجميع بعد ذلك. وبعد تسليم عناصر الغستابو إلى المقاومة يقطع هاري وعداً بإتمام مهمة دي بورساك وإنقاذ الوطني من جزيرة الشيطان. يواجه هاري بسؤال: "لماذا تفعل هذا؟" فيرد قائلاً: "حسناً، لست أدري. ربما لأنني معجب بكم، ربما لأنني أمقتهم". ومهما كانت المحاكمة المنطقية فإن هاري، سليم وإيدي ممتلئون حيوية ويخرجون مصممين وسعداء.

إن فلم **من يملك ومن لا يملك** أكثر من قصة رجل أُجبر على الاختيار بين الصواب والخطأ جراء ظروف يتعذر تجنبها. إنها دراما أخلاقية عن الطبيعة الداخلية، عن السمات الشخصية الجوهرية للبطل على مضض، رغماً عنه، مهما بدا خبيثاً، عنيداً وبعيداً عن السياسة. على الرغم من لامبالاته الواضحة فإنه المحور الذي يلوذ به الجميع؛ ما يتحلى به من سعة حيلة وقابلية، فطري وأصيل من ناحية وقابل للتعرف

عليه من قبل الجميع من ناحية ثانية. فالقدرة على التحلي بصفة البطولة، ولو على مضض، جزء من طبيعته. فهو أمريكي، وما إن يصل الضغط إلى مستوى الاضطهاد الشديد حتى يبادر هاري إلى التحرك الحازم. إذا كانت هذه الأسباب الداخلية تجعل هاري يبدو مألوفاً، فإن الأمر يعود إلى أنه إحدى الشخصيات النمطية في هيكل هوليوود. وقد جرى استدعاؤه في هذه المناسبة بوعي. فستوديو الإخوة وارنر كان تواقاً للمراهنة على فلمه كازابلانكا العائد لعام 1942. وهاري مورغان هو النظير الطبيعي لريك بلين، في حقيقة مؤكدة، مكررة بإصرار، عند قيام همفري بورغارت بتخليد الدورين كليهما. إن البنية الروائية لـ من يملك ومن لا يملك ليست إلا تنويعة موضوعات حبكة كازابلانكا، أحد أكثر أفلام هوليوود دواماً. حمل كازابلانكا رسالته على نحو مكشوف، متجسدة بالحضور القوي، الواضح لبول هنريد بدور قائد المقاومة فكتور لاسلو الذي كان يجب اختطافه سراً من أفريقيا الشمالية الخاضعة لنظام فيشي. إلا أن النواة الأسطورية للفلم، مركزه العاطفي والحركي، هو ريك، البطل رغماً عنه. إن ريك هو الأمريكي البريء الذي عشق وتحطم قلبه في باريس. يبقى مشغولاً بتجليات استيائه في كازابلانكا إلى أن تقوم إيلزا "من بين جميع مفاصل الجن في العالم كله" باقتحام مسكن ريك وتجبره على حسم الأمور. من المؤكد أن سعادة شخصين لا تساوي تلة من الدولارات في عالم بات يعاني جدياً من الافتقار إلى الناظم الأخلاقي. إن ريك هو صاحب القوة الداخلية والحضور الذهني اللازمين لتكليف إيلزا مع فكتور لاسلو بأداء دورهما في العمل من أجل هدف العصر الأسمى، في حين يبادر ريك إلى التنحي جانباً للاضطلاع بدوره. في الفلمين كليهما يكون البطل رغماً عنه هو الذي يُقْدم، بعد استثارته ودفعه إلى العمل، على توجيه الضربة القوية، الحاسمة لصالح

الحق. والفلمان كلاهما، بأسلوبيهما المختلفين، يقدمان لوحة، رواية أسطورية عن الشخصية القومية التي تشي سلفاً بتصريح وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت البليغ في 1998 إذ قالت: "إذا تعين علينا أن نستخدم القوة، فإن السبب هو كوننا أمريكا. فنحن الأمة التي يتعذر الاستغناء عنها".

ليس فلم **من يملك ومن لا يملك** لوحة شخصيات، إلا أن شخصيته الأهم هي الشخصية الأسطورية التي تمثل وتسوِّغ صورة أمريكا الذاتية وقصتها القومية الأكثر تفضيلاً. فالبطل رغماً عنه ليس إلا التكثيف والجَدُّ الفرديين لرواية أكبر: فـ?أسطورة "القوة العظمى رغماً عنها" ـ حيث لا يبادر الأمريكيون إلى تأكيد ذواتهم إلا مضطرين وفي سبيل أنبل الأهداف على الدوام ـ سائدة اليوم بوصفها الرواية الأم المفسِّرة والمبرِّرة لاضطلاع الأمة بممارسة السلطة الكوكبية"[2]. على امتداد تاريخها ظلت أمريكا، مرة بعد أخرى، ترى نفسها مؤدية دور هاري مورغان وريك بلين على مسرح العالم. فالجزئي والكلي يتوحدان. إنه طبيعتهما، تركيبتهما في حزمة قيم مشتركة؛ إنه امتثالهما للمبادئ التأسيسية الذي يجعل أمريكا/الأمريكيين عنصراً يتعذر الاستغناء عنه، يجبرهما على التحرك في عالم أقل قدرة على بلوغ، إدامة وإعلان شأن مُثُل الحرية، التحرر، الديمقراطية والسعي إلى السعادة التي هي مُثُل كونية شاملة. تقوم السينما بعكس صدى عقيدة التسويغ الذاتي التي تتجاوز العصر والتحزب السياسي، بتصويرها وجعلها مألوفة. ثمة أمريكا مستقيمة أخلاقياً، بعيدة عن إصدار الأحكام، مثل هاري مُكْرَهة عنوة على القيام بما هو صحيح. غير أن واحدة من الأساطير تكون موجودة أحياناً لتحويل الانتباه عن فكرة كبرى أكثر إلحاحاً بما لا يقاس ـ وما تلك الفكرة إلا الناموس السادس للميثولوجيا الأمريكية: يحق

للديمقراطية الأمريكية أن تكون إمبريالية وأن تعبر عن نفسها بنظام إمبراطوري.

يستطيع الناس أن يتصرفوا، وهم يفعلون دون شك، كما لو أن الأسطورة كانت حقيقة وصولاً إلى إلباس الأسطورة ثوب الواقع. وروايات أمريكا الأسطورية مأهولة بشخصيات ممثلة تقوم أفعالها بالكشف عن معنى مُثُل أمريكا ووعيها الأخلاقي. يشكل التسويغ بالأسطورة عملية تثقيفية، تحديداً لشروط أساليب النظر إلى العالم التي تشحن الظروف بالمعاني. إلا أن صنع الأسطورة عملية انتقائية أيضاً؛ فما يجري إبرازه بحدة يتمخض عن ظلاله الخاصة. وكلما كانت الأسطورة أكثر انتشاراً، رواجاً وإلحاحاً كانت أقدر على تحديد شروط الخطاب العام، طريقة فهم الأحداث والظروف ومناقشتها. وفي الظلال المتشكلة تكمن أشكال بديلة من الفهم والتفسير التي لم يتم تدقيقها. إن أسطورة البطل رغماً عنه تحدد النفسية الأمريكية وتضفي عليها هوية محددة لأنها تقدم قراءة متماسكة للتاريخ، للحاضر وللمستقبل؛ إنها تجعل السياسة الخارجية القومية امتداداً لنظرة الأمريكيين إلى أنفسهم كأفراد. تقدم الشخصية القومية كما لو كانت الإفراز الطبيعي لأسطورة الأمة، ناشطة ومجسدة للمبادئ التأسيسية ذاتها، وتضعهما كليهما في مركز الأحداث، يتعذر الاستغناء عنهما لأنهما لا يتحركان إلا بدافع هدف نبيل ولا يعملان إلا في سبيل هدف مماثل، هدف ما هو حق وبالغ النبل بالنسبة إلى الإنسانية كلها. حين يقدم هاري مورغان وريك بيلن على اقتحام القضية، وهو ما لا يلبث أن يضطر كل الأبطال رغماً عنهم إلى فعله، فإنهما لا يعودان يتطلعان إلى احتلال المرتبة الأولى، بل ولا يعودان مهتمين بمصالحهم الذاتية الخاصة. فنبلهما الطبيعي الجلي ذاتياً يقطع الطريق على السؤال عما ينطوي عليه الأمر لمصلحتهما. وفي هذه الحالة

يكون البطل رغماً عنه الأداة المثالية لتفويض وتبرير فعاليات الإمبراطورية ونشاطاتها دون الاعتراف أو التسليم بوجودها على نحو مطلق. وعملية التسويغ بالحق، فردياً أو تمهيداً للخطة القومية، تقوم على كون النزعة المثالية فطرية، حيازة طبيعية على مستوى القيم الشخصية والاجتماعية، وتنجح، لذلك، في استئصال كل ما له علاقة بفكر السياسة الواقعية المحركة للأمم الأخرى كما لجميع الإمبراطوريات. يبقى البطل رغماً عنه، مثله مثل القوة العظمى رغماً عنها، وبالطبيعة، مثالاً للقيم، مركزاً يلوذ به الآخرون ملتمسين المبادرة إلى التحرك. لذا فإن أي دراسة لعلاقات القوة أو المصلحة الذاتية تتبخر؛ يتراجع مفهوم الإمبراطورية إلى الظل، يطير من جدول أعمال الحوار المشروع ويصبح تحدياً للطيبة الطبيعية لكل ما يحدد هوية أمريكا الذاتية. أما التنصل المتضمن في أسطورة المانعة فيكذبه تاريخ أمريكا نفسه على ثلاث مستويات متمايزة.

أولاً، كانت أمريكا بنية إمبريالية تحديداً على الصعيد الداخلي. لم يكن لدى الآباء المؤسسين للأمة أي تأنيب ضمير إزاء التطلع نحو بناء إمبراطورية. كانوا عاقدين العزم، مئة بالمئة، على وراثة العباءة الإمبريالية للإمبراطورية البريطانية التي لفظوها. والاستيطان الأولي لأمريكا لم يكن إلا مشروعاً إمبراطورياً بالمعنى المألوف القديم ـ حيازة أرض وأقوام والسيطرة عليهما خدمة للمصلحة القومية الأنانية، تعظيماً للنفوذ السياسي وإغناءً للاقتصاد، على نحو مكشوف، عدواني. على نحو مناسب تماماً، تمت صياغة عبارة "الإمبراطورية البريطانية"، للمرة الأولى، لوصف المشروع؛ وقد جرى تبريرها بالتعويل الحصيف على الأسطورة. فالدكتور جون دي، وهو أول من استخدم العبارة، كان أحد الدخلاء المتطفلين على التاريخ: بوصفه مستشاراً للملكة اليزابيت

الأولى، رجل قلم، راسل جميع كبار الكوزمولوجيين وواضعي الخرائط في عصره عبر أوربا من أولها إلى آخرها، إضافة إلى اضطلاعه بدور المعلم بالنسبة إلى الإنجليز المهتمين برحلات الاستكشاف والاستيطان، وقد كان خيميائياً ذائع السمعة السيئة، مشعْوِذاً ـ أستاذ سحر ـ مثيراً للريبة. كان من أبناء ويلز أيضاً، وهو أمر حاسم بالنسبة إلى قضية الإمبراطورية. ففي مسعى منه لتعزيز مطالبة أسرة تيودور الملكية المنتمية إلى مقاطعة ويلز بأمريكا الشمالية بادر إلى إحياء أسطورة مادوك، أمير إقليم غويند الواقع في الجزء الشمالي من ويلز. يُزعم أن مادوك أبحر من موطنه في القرن الثاني عشر، اهتدى إلى أمريكا واستوطنها، فمنح بريطانيا حقاً قَبْلياً في امتلاك القارة مع حق الحلول محل الإمبراطورية الأسبانية التي تأسست على اكتشاف كولومبوس الملتحق بالركب متأخراً. وقد قيل إن البرهان المؤكِّد لصحة هذه الخرافة موجود في عدد من التقارير المختلفة عن لغات أهالي الأراضي الجديدة ـ كانوا يتكلمون لغة ويلز. جرى توظيف الخرافة كما لو كانت واقعاً، وتم إلباس الأسطورة ثوب الحقيقة في المواثيق التي أنعم بها التاج على الشركات التجارية المساهمة الشبيهة بشركة فيرجينيا التي تولت مهمة استيطان الأراضي وصولاً إلى إيجاد الإمبراطورية. وفي تاريخ لاحق أبدى توماس جفرسون، الذي جاء أجداده الأوائل من المنطقة القريبة من سنودونيا في إقليم غويند الويلزية، ولعاً شديداً بفكرة الهنود الناطقين بالويلزية. وبوصفه رئيساً للجمهورية، قام بتمويل حملة لاستكشاف الأعماق الشاسعة التي تم الحصول عليها بشراء لويزيانا في 1803، وطلب من لويس كلارك أن يولي اهتماماً خاصاً لمسألة العثور على أحفاد مادوك، الذين يقال إنهم يعيشون هناك. وقد تبين أن هنود الماندان، أفضل المرشحين، لم يكونوا من الناطقين بالويلزية، إلا أن البعثة لم تتردد

في إرساء قاعدة استغلال واستيطان الولايات المتحدة الأمريكية الموسعة.

بقي تفكير جميع الذين جاؤوا إلى أمريكا مشروطاً بتبرير الإمبراطورية القائم إما على نوع من الخرافة أو على الإيمان الراسخ بحق الحضارة المسيحية في الهيمنة على الكرة الأرضية. أولئك الذين وُلدوا وترعرعوا تحت وصاية الإمبراطورية البريطانية أعادوا صياغة هذه الأفكار القديمة المألوفة حصولاً على حقوقهم الخاصة والمحددة في البراري الموحشة الملأى باللبن والعسل. وأولئك الذين أعلنوا استقلالهم عن الإمبراطورية البريطانية لم يطلِّقوا الذهنية الإمبريالية التي تربّوا عليها والتي ما لبثت أن أصبحت القاعدة المعدلة لحكمهم الذاتي كما لتحكمهم بالأرض وأقوامها الأصلية والتابعة. لم يتم عبور أي عتبة إلا في الفهم والميثولوجيا الأمريكيين. ففي سيرورة بناء الدولة العملية، ظلت أمريكا تتصرف تماماً كما كانت تفعل الإمبراطورية البريطانية الملفوظة. أما الخط الفاصل الثوري فلم يكن تغييراً جذرياً بمقدار ما كان تبادلاً تطورياً متدرجاً لجهاز العاملين. إن مُثُل حكم الذات لم تطبق إلا على طبقة واحدة من المواطنين: طبقة الملاك البيض بأكثريتها، وقد كانت أقلية بين مستوطني الولايات الثلاث عشرة الاتحادية حين شكلت وحدتها الكاملة، ومن المؤكد أنها أقلية في كل المناطق التي ما لبثت أن أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية الحاضنة للقارة. غير أن الطبقة الحاكمة المشكلة حديثاً في الجمهورية الثورية كانت، من البداية، راغبة في، وعازمة سياسياً على اجتراح إيديولوجية حق وتسويغ ذاتي للسيطرة على المناطق المحيطة بأساليب إمبريالية. وميثولوجيا الأمة، عملية الاستيلاد الخاصة للولايات المتحدة الأمريكية، تشكل أجواء ضبابية تساهم في جعل المواصفات الإمبريالية غير مرئية عبر استيعابها بوصف ذلك الشأنَ الصحيح للهدف القومي.

أما قصة ادعاء ملكية الأرض بذريعة الاستيطان، الشراء ـ الملتبس أو غير الملتبس ـ أو التعاهد المثير للجدل مع السكان الأصليين، أو من خلال إبادة أولئك السكان أو طردهم، فليست سوى الحكاية المألوفة للإمبراطوريات عبر التاريخ، تماماً كما تؤلف الحقائق العارية لعملية البناء الإقليمي للولايات المتحدة الأمريكية. ففي هذه الأساليب كلها واصلت الجمهورية الجديدة ما كانت الإمبراطورية البريطانية قد بدأته. إن حق الاجتياح والسيطرة بجميع الوسائل يجعل الأرض كلها ملكاً للدولة التي لا تلبث أن تتنازل عن مساحات منها لمواطنيها. تلك هي الطريقة التي اعتُمدت، دائماً وفي كل الأمكنة، من قبل سائر المستعمرات والإمبراطوريات الاستيطانية؛ إنها الطريقة التي اعتمدتها الأمة الأمريكية الجديدة. فالإمبراطوريات لا تقوم إلا على التنمية الخاضعة لسيطرة الدولة، إدارتها، وتمويلها لعملية الاستغلال الاقتصادي للأرض كما للموارد التجارية التي تنتجها؛ وما الاستثمار في البنية التحتية لمساعدة وتيسير العملية إلا شأناً من شؤون الدولة. وكما لاحظنا في الفصل الثاني فإن هذا هو تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. ثمة مواطنون أحرار دأبوا في الحقيقة على توسيع الأرض وعلى إبراز كيان الأمة عبر آليات الإمبراطورية. فالعلاقات بين العاصمة (المركز) والأطراف كانت، في حالة أمريكا، داخلية. إن تجارة المسافات الطويلة بالمنتجات الأولية المستخلصة من الأرض ظلت على الدوام أساس النظام الإمبراطوري؛ إنها طريقة قيام المستعمرات بخدمة المركز، المتروبول. وهذه كانت الآلية الاقتصادية للجمهورية الجديدة. فتجارة المسافات الطويلة مع بريطانيا بقيت أساس اقتصادها، والبحث عن فرص تجارة مسافات بعيدة جديدة ظل الثابت الاقتصادي لتطورها. محلياً، قامت أمريكا ببناء اقتصاد تطلب مُدْخلات جديدة من الأرض والثروات

المنجمية لخدمة التراكم الرأسمالي، وصولاً بعد ذلك إلى أسواق جديدة فيما وراء البحار لاستيعاب منتجات الصناعة. بعيداً عن أن تكون الساحة النمطية لمعارضة المستعمرات والإمبراطوريات، كانت أمريكا تجسيداً لهذه وتلك.

ثانياً، فيما كانت أمريكا تحاول أن تنأى بنفسها عن نزعتها الإمبريالية فإنها ظلت تعكس وتواكب تحديداً جملة الأفكار الإمبراطورية التقليدية المعتمدة من قبل سائر القوى الإمبراطورية. فالرئيس الأول للجمهورية، جورج واشنطن، رأى أمريكا "إمبراطورية صاعدة". أما الجيل المؤسس للجمهورية الجديدة فكان لديه هاجس كبير: كان يشعر بأنه مقيد ومحاصر جراء وجود ممتلكات إمبريالية أخرى محيطة بأرضه، عد وجودها تقويضاً للحقوق الطبيعية الملازمة لقَدَره بوصفه جيل "إمبراطورية صاعدة". في 1778 قال ساموبل آدمز لإخوته في الوطن: "لن نصبح واقفين على أرض صلبة حتى تتنازل لنا بريطانيا عما تصمم الطبيعة أنه ينبغي أن يكون ملكنا، أو حتى نقوم بانتزاعه منها عنوة". أما ما كانت الطبيعة قد صممت تخصيصها ملكية أمريكية فتمثلت بكندا، نوفا سكوتيا وفلوريدا. وقد أضاف ابن عمه جون آدمز، رئيس الجمهورية الثاني (1797– 1801) قائلاً: "إن القارة كلها مجمعة على أن كندا يجب أن تكون لنا؛ ولابد من احتلال كوبيك". غير أن مطامع الجمهورية لم تقف عند هذه الحدود. فما لبث ابن جون آدمز، جون كوينسي آدمز أن أعلن، في 1811 قبل أن يصبح الرئيس السادس (1825-1829)، أن قال "يبدو أن إرادة السماء شاءت أن تكون قارة أمريكا الشمالية كلها مأهولة بأمة واحدة، تتكلم لغة واحدة، تتبنى نظاماً عاماً واحداً على صعيد المبادئ الدينية والسياسية، ومتآلفة مع لحن عام واحد من ألحان العادات والتقاليد الاجتماعية". وفي 1786، كان توماس

جـفـرسـون قـد ذهب حـتى إلى أبعـد من ذلك زاعـمـاً أن "اتحـادنا الكونفدرالي يجب النظر إليه بوصفه العش الذي يخرج منه أولئك الذين سيشكلون سكان أمـريكا كلهـا، شـمـالاً وجنوباً". وكان يأمل في أن تبقى الإمبراطورية الأسبانية المتهالكة صامدة "إلى أن تصبح كتلتنا السكانية على درجة كافية من التقدم لكسبها قطعة قطعة". أما الأراضي المحيطة بالميسيسبي فـ "لا بد من أن تكون لنا"، لأنها، برأي جفرسون" كل ما نحن جاهزون حتى الآن لاستلامه". وهذه الأراضي، التي كانت موضوع صفقة لويزيانا، كانت قد أصبحت من ممتلكات الإمبراطورية النابليونية قبل شرائها من قبل الجمهورية وصيرورتها ما أطلق عليها جفرسون اسم "إمبراطورية حرية".

كانت التعبيراتُ الاصطلاحية والإيديولوجيا واسعةَ الانتشار. ففي سنة 1789، سنة وضع دستور الجمهورية الجديدة موضع التطبيق، تم نشر كتاب **جغرافيا أمريكية** تأليف جديديا مورس، تضمن زعماً يقول: "لا يسعنا إلا أن نترقب، وفي وقت غير بعيد، الفترة التي تضم فيها **الإمبراطورية الأمريكية** ملايين الأرواح، إلى الغرب من الميسيسبي"[3]. آنذاك كان الحجم الكلي لسكان الولايات المتحدة الأمريكية الكونفدرالية أربعة ملايين فقط. والإصرار على التوسع بدا شديد التنافر مع بعض تفسيرات الدستور الجديد من جانب الحكومة الجديدة. ثمة أناس قالوا إن من شأن التوسع الإقليمي أن يقوض أهداف الحرية الديمقراطية، ربما عبر وضع المصالح والغرائز الإمبريالية فوق نظيرتها المتعلقة بالتحكم المحلي. ولكن هذه التنبيهات ما لبثت أن أُزيحت، على الصعيد العملي، بفعل موجات "الإمبريالية الصاعدة"، وهو الأمر الذي كان يصب في مصلحة عدد كبير جداً من مراكز القوة. فاقتحام أراضي جديدة كان، منذ التأسيس الأول للمستعمرات الأمريكية، يشكل صمام أمان. إذا

ما أصبحت الإدارة المحلية شديدة الإرهاق أو التقييد، فإن مستوطنات جديدة أبعد في عمق البراري كانت تقام. فتوسيع دائرة الاستيطان كان يوفر مخرجاً من الآفاق الاقتصادية المحدودة بالنسبة إلى القادمين الجدد والأجيال الأكثر شباباً؛ وكل من كان يسعى إلى تحسين حظوظه، محققاً الحلم الأمريكي، كان يجد ملاذه فيما وراء التخوم الغربية. وقد شكلت هذه التخوم حلاً لمشكلة عميقة ومعقدة كامنة في قلب أمريكا التي لابد لها، تحقيقاً للوعد والهدف المتمثلين بأن تكون أمة مثالية، من أن تبقى دائبة على التوسع الدائم على الصعيدين الإيديولوجي والمادي الجغرافي. وصحيفة البوسطن غلوب في 1789 وصفت الدستور الجديد على أنه "ليس أقل من قفزة متعجلة باتجاه بناء إمبراطورية كونية في العالم الغربي"[4].

أما البيان الكلاسيكي الذي حمل عنوان -مصير معلن-، متضمناً حق -الانتشار على مساحة القارة التي خصصتها السماء لمصلحة التنمية الحرة لملايينا الذين يتزايدون سنة بعد أخرى-، فلم يصدر إلا في 1845 في مقالة بقلم جون إل. أوساليفان. من الواضح أن الفكرة لم تكن أصيلة بمعنى فكر جديد، على الرغم من أنها كانت، بكل تأكيد، أصيلة بمعنى كونها بياناً متماسكاً قابلاً للاقتباس عن فكرة كانت حاضرة لحظة تأسيس الأمة. يضاف إلى ذلك أنها فكرة إمبريالية من حيث الجوهر، هدف سياسي لا يمكن بلوغه إلا عبر سيرورات مألوفة بالنسبة إلى أي إمبراطورية في جميع الأزمنة وكل الأمكنة على امتداد التاريخ. كانت الجمهورية الطفلة في أعوامها الأولى مستعدة للنظر في خوض الحرب مع القوى الإمبريالية الأوربية التي كانت مستعمراتها تطوِّق "الإمبراطورية الصاعدة"، حتى قبل امتلاك جيش أو سلاح بحرية فعالين. انخرطت في حرب بَحْرية مع فرنسا، دخلت في حرب مع

بريطانيا سنة 1812 وفكرت أكثر من مرة بخوض حرب مع المكسيك قبل نشوب المعارك القتالية الفعلية بين عامي 1846 -1848 وفي 1823، قبل وصولها إلى تحقيق مصيرها المعلن، كانت لدى الجمهورية رؤية واضحة لمصالحها وأمنها بوصفهما من الأمور المركزية في طول الأمريكتين وعرضهما. وقد جرى التعبير عن ذلك في رسالة الرئيس جيمس مونرو السنوية السابعة إلى الكونغرس. إن "مبدأ مونرو" يرى مصير مجمل النصف الغربي للكرة الأرضية "مبدأ ذا علاقة وثيقة بحقوق الولايات المتحدة ومصالحها". وحين باشرت حركات الاستقلال تحرير أمم أمريكا الجنوبية من حكم الإمبراطوريات الأوربية، سارع مونرو إلى إعلان أن نصف الكرة الغربي "لن يكون، من الآن فصاعداً، موضوع أي استعمار مستقبلي من قبل أي قوى أوروبية". وكان من شأن أي مسعى من هذا النوع أن يُعَدَّ "خَطَراً على السلم والأمن عندنا". عملياً، كانت الولايات المتحدة تحدد دائرة تفوقها ونفوذها، راسمة حدود باحتها الخلفية. كانت تلك لعبة قوة متناغمة مع أعراف القوى الكبرى التي كانت إمبراطوريات أيضاً في الوقت نفسه.

فيما كانت أمريكا، على مستوى العلاقات الدولية، منخرطة في سائر فعاليات الحرب، الدبلوماسية، واتخاذ المواقف التي تليق بـ "إمبراطورية صاعدة"، ظلت تتصرف وفقاً للنمط المألوف لدى الإمبراطوريات الاستعمارية على الصعيد الداخلي. ففي علاقاتها مع السكان الأصليين، أقوام أمريكا الشمالية الأولى، طبقت الجمهورية الجديدة بدقة جميع النماذج المعتمدة والمفاهيم التنموية لدى الإمبراطوريات في كل مكان. وداخل حدودها المتوسعة الخاصة دأبت أمريكا على غَرْس النزعة الأبوية العنصرية، الإهمال الودود واللئيم المتناوب مع موجات من الإبادة التي لا تعرف معنى الرحمة، حركات

التهجير الجماعية، سلسلة الانتهاكات المطردة والمتواصلة للمعاهدات وأشكال المعاملة البائسة لسكانها الهنود. جميع تيارات الإيديولوجيا الأوربية التي وُظفت لتأكيد تفوق العرق الأبيض على سائر الشعوب الأخرى، تثبيته ووضعه موضع التطبيق، كانت ممثلة في أمريكا. فرسالة نشر الديانة المسيحية وعلمنتها العنصرية القائمة على الدارونية الاجتماعية، الافتراض المسبق بأن ثقافة البيض أكثر إحاطة بطبيعة الهنود وحاجاتهم من الهنود أنفسهم ـ مما يجعلها أقدر على تنظيم حياتهم وإدارتها ـ ذلك كله ظل ينعكس على تحولات سياسة الحكم، كما على مناقشة موضوع الهنود وتمثيلهم في الفنون، الآداب والدراسات الأكاديمية الأمريكية. تمثلت الاستثنائية الحقيقية لأمريكا بعدم اضطرارها للنظر إلى ما وراء البحار لالتماس انعكاسات الذهنية الإمبريالية الاستعمارية في التعامل مع غير الأوربيين؛ فالآخرون كانوا داخل حدودها بالذات. توصلت أمريكا إلى تحديدها للذات، لهويتها الأكثر جوهرية، في غمرة هذه الحركة الاستعمارية (الكولونيالية) الداخلية؛ إنها صورة إمبريالية يتعذر فصلها عن ذات أمريكا، إيديولوجيتها وميثولوجيتها. فأمريكا البيضاء دأبت على التسليم بأن من حقها الطبيعي وبالتالي من طبيعتها أن تكون "الأب العظيم" لأولادها (الهنود) الحمر.

من هيكلتها المحلية للهوية والممارسة القوميتين، قامت أمريكا بصياغة مفهومها لمدى قدرتها على السيطرة، على الاضطلاع بدور مركز التحرك الصحيح والهدف السامي. والقاعدة التي استند إليها هذا الصرح تمثلت بنوع من الرسالة المحددة بتعابير ومجازات دينية. بدا الإسرائيليون الجدد متمتعين بمكانة خاصة بوصفهم شعباً مختاراً ميَّزَتْه مشيئةُ السماء ليكون أهل المدينة على التلّة. فحين كتب جون وينثروب

عن الاستيطان الجديد لأمريكا بوصفه "مدينة على تلة"، كان يرمي إلى تحديد جامعة نموذجية تكون جديرة بالتقليد: "عيون جميع الناس متركزة علينا"[5]. إن الطبيعة المسيحانية (المهدوية) لاستيطان أمريكا المبكر واردة في كل الأمكنة عبر جميع ما صدر عنها من كتابة وإبداع. ومع ذلك فإن أقلية من سكان الولايات الثلاث عشرة فقط كانت من المنتمين إلى الكنيسة قبل الحرب الثورية التي تمخضت عن الجمهورية الجديدة. فقط واحد من كل خمسة في نيوانجلند والمستعمرات الوسطى، واحد من كل ثمانية في الجنوب، كان ذا علاقة بإحدى الكنائس. إلا أن الانتماء والانتساب إلى إحدى الأبرشيات كانا، في التراث الكالفني السائد، قضية واجب ومسؤولية ذات شأن، على الصعيدين الديني والأهلي كليهما. وقد تحدث دستور الجمهورية الجديدة تحديداً عن الفصل بين الكنيسة والدولة، وكان للأمر تأثير بالغ في تاريخ الديانة الأمريكية. ففي 1797، تضمنت المعاهدة التي أبرمتها الولايات المتحدة مع طرابلس (الغرب) عبارة تقول: إن "حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ليست قائمة، بأي معنى من المعاني، على أساس الديانة المسيحية". ومع ذلك، فإن هذا لم يَحُلْ، كما سبق لنا أن رأينا، دون استحضار إرادة السماء لحفز الأمة الجديدة على السير قدماً في طريق مصيرها المعلن. كُتبت المعاهدة في أثناء الفورة الأولى للاستقامة الدستورية، وقبل أن تقوم اليقظة الكبرى (الصحوة الدينية الطاغية) باكتساح أمريكا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر لقلب المشهد الروحي رأساً على عقب. وفي سياق عدم وجود أي دين رسمي مؤسساتي، نجحت الحركة الإنجيلية في صياغة سلسلة جديدة من الأبرشيات، من الأفكار اللاهوتية المتنوعة ومن الممارسات الدينية المتباينة. ومكان الرؤية المتزمتة القائمة على مركزية الرب في اللاهوت

الكالفيني، برز لاهوت قائم على مركزية المسيح وما لبث أن سيطر على الخيال الأمريكي. أو أن "هؤلاء الإنجيلين المتحمسين نجحوا في دمقرطة المسيحية ونَصْرنة أمريكا" كما قال ستفن بروتيرو الذي أضاف أن "للمسيح تاريخاً أمريكياً، بفضل جهودهم. فما رآه الأمريكيون فيه (في المسيح) كان تعبيراً عن آمالهم ومخاوفهم انعكاساً ليس لمجرد ألوهية "أخرى كلياً" ما وحسب، بل ولأنفسهم هم وأمتهم؛[6] أما مجموعة حركات البعث والولايات الجديدة التي كان إنتاجها من تصميمهم فقد أنشأت عقيدة بروتستانتية جديدة. بات الانتماء إلى الكنيسة هو القاعدة في أمريكا. فحركات الإحياء، اجتماعات الخيم وحلقات الوعظ القائمة على رواية القصص ما لبثت أن حوّلت الواعظين نجوماً والإجْراء كله لهواً وتسلية. صحيح أن تاريخ الدين في أمريكا معقد، إلا أنه بات يزيد من التركيز على نوع من العلاقة الشخصية مع يسوع وتبني تعاليمه الأخلاقية، الأمر الذي كان، عبر كل تفاصيل التميز اللاهوتي الدقيقة، جوهر بركته المخلِّصة. انتشرت ظاهرة الدعوة إلى النظام والقانون مسبوقة بحملات الحض على الحشمة والأدب في طول البلاد وعرضها، مثلها مثل حملات دعم البعثات التبشيرية فيما وراء البحار. وهذه البعثات اتخذت من هاواي رأس جسر مما سوغ ضم الجزيرة أولاً وجعلها واحدة من الولايات بعد ذلك. وقد توجه المبشرون الأمريكيون إلى أفريقيا والصين. أما إيحاء جون كوينسي آدمز بأمة "تعتنق منظومة عامة واحدة من المبادئ الدينية والسياسية" فقد تبلور بوصفه تعبيراً موحداً عن الطبيعة الفطرية للفضيلة القومية. فمع حلول عام 1892، كانت المحكمة العليا، حامية الدستور، قادرة على إصدار قرار يكيل المديح لـ"مخلص البشرية" ويصف الولايات المتحدة بـ"أمة مسيحية" دون أي إحساس بالتناقص أو المراجعة الجذرية (الارتداد)[7].

كانت جميع الشروط اللازمة للتحول إلى قوة إمبريالية على المسرح العالمي، إذن، موجودة في، ومستمدة من التاريخ الداخلي لأمريكا. ثمة سياسة إمبريالية قائمة على التوسع فيما وراء حدود الولايات المتحدة كانت نتاج تخطيط مدروس، أيده وتولى قيادته تيودور روزفلت. ففي كتابات الأخير يجري تقديم المنطق الإمبريالي بوصفه السبيل الوحيد للحفاظ على الفضائل القومية المغروسة والمكتسبة على التخوم الغربية لدى إخضاع السكان الهنود ووضعهم "كلياً وبكفاءة تحت سيطرة حضارتنا، أو (ربما بقدر أكبر من الصراحة) تحت الضرورات التجارية الأنجلو ـ ساكسونية". كان من شأن ترجمة حقائق التخوم الغربية وفضائلها إلى تخوم كوكبية أن تساعد على نمو السلام والتقدم في طول العالم وعرضه. فالتقدم لم يكن "متاحاً إلا لقوة الأعراق المتحضرة الجبارة التي بقيت محافظة على غريزة القتال، والدائبة، عبر توسعها، على السير قدماً في طريق الجلب التدريجي للسلم إلى الأرض اليباب الحمراء الخاضعة لطغيان شعوب العالم البربرية"[8]. كان من شأن هذه الخطة الإمبريالية أن تجلب "السلم بالسيف"، لأن "الحرب على الخط الفاصل بين الحضارة والبربرية أمر طبيعي عموماً"، ويجب النظر إلى انتصار الحضارة دائماً على أنه تحسين للعالم على الصعيدين الأخلاقي والعلماني، على الصعيدين المعنوي والمادي. في رسالة مؤرخة بشهر أيار/مايو 1897 وجهها إلى المؤرخ والمفكر الاستراتيجي ألفريد تي. موهان، الذي كانت لكتاباته تأثير كبير على تفكيره، أورد روزفلت قائمة بأهداف محتملة للإمبراطورية الأمريكية الجديدة: قناة عبر برزخ أمريكا الوسطى وضم هاواي، ساموا، كوبا، وكل ما يتيسر اكتسابه.

لم يكن روزفلت صاحب الصوت الوحيد الداعي بإلحاح إلى مبادرة الولايات المتحدة إلى المزيد من التوسع الإقليمي. ففي 1885 كان

القس الأبرشي جوسيا سترونغ قد رأى، في كتابه الشعبي الرائج وطننا، أن الأنجلو ـ سكسوني يمثل فكرتين عظيمتين: "الحرية المدنية" و"المسيحية الروحانية النقية". وبالتالي، فإن الأنجلو ـ سكسوني... مكلف من السماء بأن يكون، بمعنى استثنائي، القيِّم على أخيه. وبالنسبة إلى الولايات المتحدة كان ذلك التكليف تفويضاً بالتحرك لـ "اجتياح المكسيك، اجتياح الأمريكتين الوسطى والجنوبية، والانقضاض على جزر البحر، على أفريقيا وما وراء أفريقيا"[9]. وثمة مساعد إيديولوجي لروزفلت، يدعى البرت بيفريدج، قَدَّم عملية التوسع بوصفها نتيجة طبيعية لتطور الأمة. ففي خطاب له ببوسطن يوم 21 نيسان/أبريل 1898، أعلن بيفريدج هذا أن:

> المعامل الأمريكية تصنع أكثر مما يستطيع الشعب الأمريكي استخدامه؛ التربة الأمريكية تنتج أكثر مما يستطيع الأمريكيون استهلاكه. القَدَرُ نفسُه رسم لنا خطتنا وسياستنا: لابد لتجارة العالم من أن تكون لنا نحن وستكون... سوف ينغرس القانون الأمريكي، النظام الأمريكي، الحضارة الأمريكية، والعَلَم الأمريكي على شواطئ غارقة إلى الآن في الدماء والظلمة، ولكنها مرشحة بعد الآن، بفضل أدوات الرب تلك، لأن تغدو آيات جمال وضياء.[10]

جاء تبني السياسة الإمبريالية متوافقاً مع طبيعة أمريكا وشخصيتها، إلا أن نوعية الإمبراطورية التي ستكونها أمريكا بقيت مفتوحة للنقاش. قام خبير الاقتصاد تشارلز إيه. كونانت بتلخيص الخيارات في أيلول/سبتمبر قائلاً:

ما إذا كانت الولايات المتحدة ستُقْدم فعلاً على حيازة ممتلكات إقليمية، ستنشئ أساطيل من البوارج الحربية وسلاسل من الحاميات، أم ستتبنى الموقف الوَسَطي القائم على حماية سيادات مستقلة اسمياً... يبقى تفصيلاً...]ما يهم [هو أن الولايات المتحدة ستفرض حقها في الأسواق الحرة في جميع البلدان القديمة التي يجري فتح أبوابها أمام الخيرات الفائضة لدى البلدان الرأسمالية، ومنحها، بالتالي، نعم الحضارة الحديثة.[11]

غير أن تحت قشرة المسائل التفصيلية كان يكمن فهم واضح للمنافع. أضاف كونانت مجادلاً: "أن الولايات المتحدة بلغت فعلاً، أو هي موشكة على بلوغ الوضع الاقتصادي الذي.... تصبح فيه المنافذ إلى خارج الحدود مطلوبة، بغية الحيلولة دون الكساد، البطالة والمعاناة على المستوى الداخلي". وإذا ما أقدمت جميع الأمم على ممارسة "التجارة الحرة" فلن يبقى ثمة ما يدعو إلى "اعتماد القوة السياسية والعسكرية"؛ وما اضطرار الولايات المتحدة "انطلاقاً من غريزة البقاء" إلى الانخراط في اللعبة الإمبريالية إلا لأن تلك الأمم لم تبادر إلى مثل هذه الممارسة.

تمثل أساس الإمبريالية الأمريكية بسياسة "الباب المفتوح"، التي لخصها وزير الخارجية جون هاي في تعليقين له صدرا عامي 1899 و1900 بعنوان ملاحظات حول الأبواب المفتوحة. أعلن الوزير أن لأمريكا مصلحة في الحفاظ على وحدة الصين الإقليمية. من الواضح أن القوى الأوربية كانت تتطلع إلى تمزيق الإمبراطورية الصينية المريضة، المتهاوية داخلياً تحت ضغوط ثورة القبضات المحكمة الصينية (Boxer Rebellion) ظاهرياً كانت سياسة الأبواب المفتوحة معادية للاستعمار

ومناوئة للتدخل، مع الإيحاء الإضافي بأن أمريكا لم تكن تسعى إلا إلى المساواة والعدالة على صعيد التمتع بالامتيازات، التي تتمتع بها القوى الأوربية واليابان في الصين، نفسها. وغياب المصلحة كان مناسباً تماماً لصورة أمريكا الذاتية، إلا أن معناه في الممارسة العملية جاء مختلفاً إلى حد بعيد. وكما أقر ووردو ولسُن فإن المسألة لم تكن مسألة ?باب مفتوح أمام حقوق الصين، بل الباب المفتوح لمرور البضائع الأمريكية"[12]. فالمالية والتجارة الأمريكيتان، وهما خارجتان من رحم قاعدة الثروة الطائلة والنظام الصناعي المتطور، كانتا متفوقتين بالفعل على نظائرهما لدى سائر الاقتصادات والأمم. كان من شأن أي ملعب مستوٍ قائم على الندّية والتكافؤ أن يكون في صف تفوق أمريكا الطبيعي، وهو تفوق كان مرشحاً لأن يبقى متعاظم الأهمية والنفوذ على امتداد عقود القرن العشرين.

عندما لاحت فرصة اعتماد استراتيجية إمبريالية مدروسة بوعي وتفعيلها، تمت المسارعة إلى التمهيد لها بديباجة نبيلة. في الحادي عشر من نيسان/أبريل 1898، بعث الرئيس ماكنلي برسالة إلى الكونغرس مقترحاً "تدخل الولايات المتحدة بالقوة بوصفها طرفاً محايداً لوقف الحرب" ولوضع حد لـ "الأعمال الهمجية، إراقة الدماء، المجاعات، وأشكال البؤس المرعبة، الحاصلة في كوبا، حيث تتواصل حركة عصيان ضد الحكم الإسباني وضد جرائم السلب والنهب التي يقترفها الجنرال الإسباني (الجلاد) فاليريانو ويلر. وحُمَّى الحرب ظلت متصاعدة في الولايات المتحدة منذ كانون الثاني/يناير من ذلك العام حين جرى نسف باخرة مين الأمريكية في ميناء هافانا. ومن الأسباب الأخرى التي ساقها ماكنلي تسويغاً للتدخل كانت "حماية وتأمين الأرواح والممتلكات" الأمريكية وضرورة الحيلولة دون إلحاق "أذى خطير جداً بتجارة شعبنا

ومصالحه وأعماله". وبعد ثمانية أيام صدر قرار تضمن اعترافاً باستقلال كوبا ومطالبة بانسحاب إسباني مجيزاً العمل العسكري. وحين دقت ساعة الحرب لم يكن من تولى قيادة الهجوم سوى مساعد وزير البحرية، تيودور روزفلت، على رأس فوج متطوعين، فوج الفرسان الأشداء. تسلق فرسان الفوج جبل سان خوان في أحد أكثر أحداث الحرب أيقونية، حدث ما لبثت أن أصبح موضوع أنباء بالغة الإثارة في طول أمريكا وعرضها. وقد أصبح هجوم جبل سان خوان المشهد الأكثر شعبية في معرض بوفالو بِلّ للغرب المتوحش، وسرعان ما أوصل روزفلت إلى منصب نائب رئيس الجمهورية في انتخابات تلك السنة. كان "فوج رعاة البقر" (فوج الكاوبوي) الذي شكله وقاده روزفلت موضوع أشهر كتبه: **الفرسان الأشداء** (1900)، الذي يورد فيه كل حججه المؤيدة للإمبريالية بوصفها الترجمة الحرفية لمنطق التخوم إلى لغة الساحة الكوكبية. تولى الكتاب مهمة ترسيخ وتدعيم شعبية الرجل المقدَّر له أن يصبح الرئيس الـ 26 إثر إقدام ليون تشولغوش على اغتيال ماكنلي في 1901. يقول رتشارد سلوتكين إن روزفلت كان أيضاً صاحب فكرة أن الفوج العسكري إن هو إلا رمز للأمة في أروع حالاتها، صورة مصغرة للنظام التقدمي الخاضع لإدارة وأوامر طبقة ضباط ذات مكانة ونفوذ مكتسبين بجدارة أصيلة، طبقة ضباط متفانية في خدمة أهداف الوطن.[13]

قبل مباشرة مغامرته العسكرية في كوبا، كان روزفلت قد أعد العدة لفتح جبهة ثانية في الحرب الإسبانية ـ الأمريكية. فبوصفه مساعداً لوزير البحرية، ومسؤولاً مؤقتاً عن قيادة الوزارة، أقدم روزفلت، بعد إغراق مين بعشرة أيام، على الإيعاز للكومودور جورج ديوي بالاستعداد لشن هجوم على مانيلا في الفلبين في حال اندلاع الحرب.

وفي 1896 كانت ثورة ضد الحكم الإسباني قد اندلعت في الفلبين، تماماً كما كان قد حصل في كوبا. واستجابة لحفز روزفلت، كان ديوي جاهزاً في أيار/مايو 1898 لنقل قائد التمرد الفلبيني المنفي أيميليو آغوينالدو من هونغ كونغ إلى مانيلا، حيث باشر فوراً تشكيل جيش مقاومة. كان آغوينالدو واثقاً؛ فديوي كان قد وعده بأن -الولايات المتحدة لم تكن قد جاءت إلى الفلبين إلا من أجل تحرير الفلبينيين من نير إسبانيا- دون أي مطامع إقليمية.[14] غير أن الأمريكيين وحلفاءهم الفلبينيين كان لديهم تصوران مختلفان عما ينبغي للتحرير أن يعنيه. لم يمض إلا القليل من الوقت قبل أن يبدأ تصوير آغوينالدو وقواته عصاة ـ متمردين ـ مع إعادة رسم الاشتباكات كلها على أنها نوع من الحرب الهمجية المعروفة في تاريخ أمريكا بالذات. لم يتأخر روزفلت في مقارنة الفلبينيين بالأباتشي. كتب مراسل **دفتر فيلادلفيا** (فيلادلفيا لدجر) يقول:

> ليست الحرب الحالية شِجارَ مَلْهى زائفاً، بلا دماء. رجالنا كانوا بلا رحمة؛ قتلوا لاستئصال جموع الرجال، النساء، الأطفال، السجناء والأسرى، المتمردين النشطاء والمشبوهين ممن هم في العاشرة من أعمارهم وصاعداً.... قام رجالنا بضخ الماء المالح في جوف الرجال لـ "إجبارهم على الكلا"، وأخذوا أولئك الذين استسلموا دون مقاومة أسرى ... وبعد ساعة واحدة ... ودون أي دليل يشير إلى أنهم متمردون أوقفوا على الجسر وأُعْدموا رمياً بالرصاص الواحد بعد الآخر... صحيح أن هذه ليست حرباً متحضرة، ولكننا لم نكن نتعامل مع

متحضرين. فالشيء الوحيد الذي يخافونه هو القوة، العنف، والتوحش ونحن نزودهم به.[15]

إذن، جرى دفع أمريكا في مسار إمبريالي. وقد فُسر معنى أمريكا في خطاب لعضو مجلس الشيوخ بفريدج، أُعيد طبعه ووُزع على نطاق واسع من قبل المؤتمر القومي الجمهوري الذي دأب على الدعوة إلى تبني عقيدة خلاصتها: "حيثما يُرفع العلم مرة يجب ألاّ يُنَكَّس إلى الأبد". وبعد استعراض الممتلكات التي جرى كسبها، فعلاً أو توقعاً ـ هاواي، ضُمت أخيراً في 1898؛ بورتوريكو؛ "تلبية لدعاء أهلها لن تلبث كوبا أن تصبح لنا أخيراً"؛ وفي جزر الشرق حيث ينبغي أقله لمرفئ الاستفحام أن يكون لأمريكا مع إبقاء "علم حكومة ليبرالية مرفرفة فوق جزر الفلبين"ـ انتقل إلى الحط من شأن الفكرة التي تقول بأن على أمريكا ألا تحكم أي شعب دون موافقته قائلاً:

> أما قاعدة الحرية التي تقوم على مبدأ أن الحكم العادل كله يستمد مشروعيته من موافقة المحكومين فلا تنطبق إلا على المؤهلين لممارسة حكم الذات. فنحن نحكم الهنود دون موافقتهم، نحكم المناطق العائدة لنا دون موافقتها. إننا نحكم أولادنا دون موافقتهم...

من شأن صراعات المستقبل أن تكون صراعات تجارية ـ معارك على الأسواق ـ حروب تجارية للبقاء، وقاعدة السلم الذهبيّة هي مناعة الموقف واستحالة الجاهزية على الاختراق.[16]

قام وودرو ولسن الذي عارض التوسع فيما وراء البحار قبل الحرب الإسبانية باستحضار أسطورة البطل رغماً عنه تبريراً لموقفه. ففي 1900 قدم نظرته ذات النكهة الديمقراطية من حيث الأسلوب إلى جملة

العواقب في هذه المرحلة الجديدة من تطور أمريكا، على طريقة هاري مورغان:

لم نكن مخيَّرين حين أَقْدَمْنا على الاضطلاع بهذه المهمات التي ستغيرنا... العالم كله يعرف تلك الظروف المباغتة التي فرضتها علينا... العالم كله كان قد أصبح حارةً واحدة؛ ما من جزء إلا وأصبح جاراً لباقي الأجزاء. ما من أمة تستطيع أن تعيش وحدها بعد الآن.... (لقد أصبح) من واجب الولايات المتحدة أن تلعب دوراً، وهو دور طليعي ورائد على صعيد فتح الشرق وتحويله... لابد للشرق من أن يُفتح ويحوَّل، شئنا ذلك أم أبينا؛ لابد من فرض معايير الغرب عليه، على الشرق؛ فالأمم والشعوب التي ظلت جامدة قروناً من الزمن... (سيتم) جعلها جزءاً من تجارة العالم وأفكاره الكونية... من واجبنا الخاص... تيسير العملية لمصلحة الحرية... وهذا هو ما سنفعله ... عبر منح تلك الأمم والشعوب، خدمة لها، حكماً ونظاماً كفيلين بإضفاء الصفة الأخلاقية عليها لأنهما، كليهما، أخلاقيان.[17]

وبعد سبعة أعوام فقط كتب وِلْسُن نفسُه يقول:

لأن التجارة لا تعترف بالحدود القومية والصناعة تصر على امتلاك العالم سوقاً لها، فإن على عَلَم الأمة أن يتبعهما، وأبواب الأمم الموصدة أمامها يجب أن تُخْلَع. لابد للتنازلات التي حصل عليها أرباب المال من أن يبادر وزراء الخارجية والدولة إلى حمايتها، ولو تم انتهاك سيادة الأمم

الممانعة في أثناء العملية. يجب أخذ المستعمرات أو غرسها كي لا تبقى أي زاوية مفيدة في العالم مغفلة أو مهملة.[18]

ومع ذلك فإن روزفلت نفسه، وهو النصير الأكثر تعصباً للإمبريالية، استطاع الاهتداء إلى تعبير سياسي معتدل نجح في الجمع بين سلاسل المراحل، الأنماط والأمزجة المختلفة للإمبراطورية الأمريكية. ففي خطابه الرئاسي السنوي الموجه إلى الكونغرس في كانون الأول/ديسمبر 1904، كرر روزفلت إيمان الأمة بمبدأ مونرو، وجعل الصداقة مع أمريكا مشروطة بـ "الكفاءة والاستقامة في القضايا الاجتماعية والسياسية" بدول أمريكا اللاتينية القومية. إلا أنه حَذَّرَ من أن أمريكا سوف ?تضطر للاضطلاع بدور قوة شرطة دولية "من أجل مكافحة" مثل هذه الحالات من الخطأ والعجز "في حال عدم الارتقاء إلى المستويات الأخلاقية المطلوبة. وهكذا نرى أن معمار الإمبريالية الخارجية استحضر الماضي لتثبيت الحاضر ووفَّر الذريعة التي يمكنها أن تتمخض عن القوة العظمى رغماً عنها، وهي القوة العظمى المدعوة لضبط المستقبل وتنظيمه.

مع بداية القرن الجديد، كانت أمريكا قد انخرطت في اللعبة الإمبريالية الكبرى. وجملة خطاباتها، أفكارها، خططها وأفعالها لم تكن مختلفة عن نظيرتها لدى أي من القوى الأوربية. لم تكن أمريكا خالية من الشوفينيين، من المنظرين الأخلاقيين، ومن النقاد المباشرين والصريحين للإمبريالية كما للممارسات الأمريكية في الخارج. ليست قصيدة روديارد كِبْلِنْغ "عبء الإنسان الأبيض" تنبيهاً للإمبراطورية البريطانية، وإن كان من الممكن أن تكون كذلك، بل هي تعبر عن العواطف التي كانت شائعة ومألوفة في البلدين (بريطانيا وأمريكا). وقد كُتبت، حقيقة، لحض أمريكا

على محاربة الفلبين، ونُشرت في اليوم الذي اندلعت فيه الحرب فعلاً نفسه في شباط/فبراير 1899؛ تقول القصيدة:

احملوا عِبْءَ الإنسان الأبيض.

قَدِّموا أفضل ما لديكم من شباب.

هيا، اسجنوا أبناءكم في المنافي

ليلبوا حاجات أسراكم؛

ليقدموا جميع صنوف الخدمة

إلى أقوام مهزوزة ومتوحشة.

إلى أقوامكم حديثة الأسر، النكدة

أنصاف الشياطين وأنصاف الأطفال

احملوا عِبْءَ الإنسان الأبيض.

لن تجرؤوا على لإذعان لما هو أقل.

وإياكم مناجاة الحرية مبالغين في الصراخ

ستراً لما تعانونه من تعب؛...

كان كِبْلِنْغ، داعية الإمبراطورية، مثله مثل مؤيدي الإمبريالية الأمريكيين شديد التعاطف مع الميزات المتفوقة للعنصر الأنجلو ـ سكسوني ومتمحساً مع نزوع يميني متزايد سياسياً فيما يخص الإمبراطورية. كان أيضاً متزوجاً من أمريكية، كارولاين (كاري) بالستييه، وقد أمضيا السنوات الأربع الأولى من حياتهما الزوجية في بيتها بباتلبور الفيرمونتية حيث رُزقا بولديهما البكر. ويشير كنغزلي آميس إلى أن كِبْلِنْغ ربما فكّر حتى بالحصول على الجنسية الأمريكية، إلى أن أدى نزاع حاد بين بريطانيا وأمريكا إلى تسميم الأجواء فعاد إلى إنجلترا.[19]

إن التاريخ الأمريكي يدحض أسطورة الإمبريالية القسرية أو الإجبارية بطريقة ثالثة: ابتدعت الولايات المتحدة حيلة جديدة للحفاظ على خرافة البطل رغماً عنه. تمثلت الحيلة بإيجاد صيغة "دبلوماسية الدولار" التي مكَّنَتْ أمريكا من نبذ الإمبريالية مع الاستمرار في التصرف على نحو أكثر دهاءً وأشد خُبْثاً من أي إمبراطورية أخرى. إن خَلَفَ روزفلت في الرئاسة: وليم تافت هو الذي تملَّق الشركات الأمريكية واعداً بـ "تقليص التدخل في شؤون الأعمال المشروعة إلى الحدود الدنيا الممكنة". وقد أطلق تافت هذه العملية التنموية المميزة الاستثنائية للخطة الإمبريالية الأمريكية: ?سعت دبلوماسية الإدارة الحالية إلى التجاوب مع الأفكار الحديثة للتعامل التجاري. وقد تميزت هذه الخطة بإحلال الدولارات محل طلقات الرصاص. إنها تناشد العواطف الإنسانية المثالية، مثلما تلبي مستلزمات السياسة والاستراتيجية الصحيحتين، وكما تخاطب الأهداف التجارية المشروعة?، أعلن تافت في كانون الأول/ديسمبر 1912. نجحت دبلوماسية الدولار في نقل الشراكة الاقتصادية التي كانت قد طَبَعَتْ توسع التخوم الغربية بطابعها إلى التخوم الكوكبية. ما لبثت وزارة الخارجية أن أصبحت حركية ناشطة في عمليات البحث عن الأبواب وفتحها أمام الأعمال الأمريكية، ولاسيما أمام الاستثمارات الأجنبية لمصلحة مصرفيين كبار مثل جي. بي. مورغان، إدوارد إتش. هاريمان، كون لويب وشركاه، وفيرست ناشيونال بانك. أسست السياسة الرسمية القائمة على دعم مصالح الأعمال الأمريكية لعلاقات باب دوار وثيقة بين أمريكا الشركات والحكومة على مستويات مختلفة. فدبلوماسيو كارتر، مثلهم مثل موظيفه السياسيين، كانوا قادرين على التطلع إلى التأرجح بين القطاعين العام والخاص، بين عالمين مترابطين بمصالح متبادلة. وبما أن دبلوماسية الدولار لم تقتلع،

بل وحفزت في الغالب، التدخل العسكري، فإن الروابط بين مصالح الشركات التجارية والجيش كانت نتائج طبيعية للخطة المعتمدة. تمتد جذور المجمَّع العسكري ـ الصناعي عميقاً في صلب آليات تشكل الإمبراطورية (السلطنة) الأمريكية المتميزة.

كانت الطبيعة المميزة للإمبراطورية الأمريكية، استثنائيتها، هي الطريقة التي مكّنت دبلوماسية الدولار من امتلاك سلطة فعلية على الشؤون الداخلية لأمم أجنبية دون الحاجة إلى إقامة مستعمرات رسمية. فغاية الإمبريالية كما مارستها الإمبراطوريات الأوربية تمثلت بانتزاع الخيرات وتحويل الثروات من المستعمرات إلى المراكز المتروبولية. ومع مرور الوقت أخلت المستعمرات الميركانتيلية حيث كان التجار العناصر الفعالة للتوسع الأوربي مكانها لرُقَع مركبة من أشكال الحكم المباشرة وغير المباشرة. ثمة كانت إدارات كولونيالية مؤلفة من ولاة، محافظين، موظفين مدنيين، ضباط عسكريين وقضائيين من المتروبول تتولى التسيير الكلي لبلدان أجنبية رغم جميع التعقيدات التي ينطوي عليها الحكم المباشر لمجتمعات مختلفة جذرياً. أما الحكم غير المباشر فكان يعني، ببساطة، تعيين "مقيم" هو المستشار الأول لأمير محلي كان يبقى الرئيس الإسمي للدولة، باستثناء حقيقة أن "المشورة" كانت التسمية المهذبة لـ "إصدار الأوامر". أجزاء من الهند وولايات المالاي كانت خاضعة لمثل هذا الحكم غير المباشر من قبل الإمبراطورية البريطانية. وعلى الرغم من أن هذا النمط من الإمبراطورية الأوروبية كثير الشبه بأسلوب عمل دبلوماسية الدولار الأمريكية، فقد كان بين النموذجين اختلافات لافتة. وقد تمثل أكبر هذه الفروق بالمسافة المفهومية أو النظرية المترتبة على دبلوماسية الدولار، بعامل قابلية إنكار امتلاك القدرة على الكلام عن الحرية، عن تقرير المصير وعن معاداة الاستعمار،

بامتلاك المرء لكعكته البلاغية في حين تقوم الأعمال الأمريكية بالتهام كل شيء عبر تفعيل دولاراتها. إن سلطة استخدام القوة مع الظهور في الوقت نفسه بمظهر الرافض للانخراط المباشر في الشؤون الداخلية لأمم وشعوب أخرى، لاحتلال مركز الحركة، للاضطلاع بأدوار يتعذر الاستغناء عنها في الأحداث والقرارات، دون أي مسؤولية عدا محاسبة خط القاع التعاوني ـ إنها سياسة كان من شأن هاري مورغان وريك بلين أن يدعماها بحماسة! كانت الآلية الإمبريالية محكومة بتلك المبادئ الطبيعية والنبيلة، المبادئ الديمقراطية والنافذة بحرية لكل من السوق والمصلحة التجارية. لم تكن الفروق والنزعة الاستثنائية للإمبريالية الأمريكية منطوية على أي اختلاف ذي شأن إلا على صعيد العواقب بالنسبة إلى الأمم المتلقية المفضلة: مع الاستعمار التقليدي الرسمي كان ثمة أمل، مهما كان بعيداً، في احتمال تعرض النظام الاستعماري للنبذ والطرد؛ أما في ظل البديل الأمريكي فإن من شأن الدولار الجبّار أن يبقى ممسكاً بزمام الأمر على الدوام.

تمثل البلد الأول في الطرف المتلقي على الخط المبتكر لدبلوماسية الدولار بنيكاراغوا الخاضعة لحكم الدكتاتور خوزيه سانتوس زيلايا المدمن على عادة رفض الطلبات الأمريكية الخاصة بإنشاء قاعدة بحرية، بامتياز فَتْح قناة ثانية وباقتراحات ذات علاقة بفُرَصٍ تجارية جديدة لشركات أمريكية. غير أن ذريعة التحرك، حسب ما جاء في خطاب الرئيس تافت السنوي الموجه إلى الكونغرس عام 1909، تمثلت بأن زيلايا "قد أغرق أمريكا الوسطى في بحر من التوتر والاضطراب الدائمين". تعين على أمريكا أن تهتم بالشؤون النيكاراغوية نيابة عن أولئك المبتلين بالمشكلات التي أثارها الدكتاتور. في السر، بدأ أمين سر إحدى شركات التعدين الأمريكية بالإعداد لثورة، ممولاً المتمردين

ومجنِّداً شركة الفواكه المتحدة وغيرها لاستخدام بواخرها لنقل المقاتلين والمؤن لمصلحة المتمردين ـ بالاتفاق الكامل مع وزارة الخارجية. سارعت واشنطن إلى قطع العلاقات مع زيلايا، رفضت الاعتراف بخَلَفِه المنتَخب على نحو سليم، دفعت ما ترتب عليها من رسوم جمركية إلى النظام الذي أسسه عميل شركة التعدين مع الجنرال خوان استرادا، وحين تعرض المتمردون للهزيمة على أيدي قوات موالية لحكومة نيكاراغوا، أُنزلت قواتُ المارينز لحماية العصاة لدى قيامهم بإعادة تنظيم صفوفهم. في آب/أغسطس 1910 انتصر المتمردون ودخلوا العاصمة ماناغوا، بادرت وزارة الخارجية إلى إيفاد ممثل للتفاوض على عقد تحالف مع النظام الجديد، تحالف جرى توقيعه على متن إحدى البوارج الحربية الأمريكية. تضمن اتفاق التحالف الدعوة إلى اختيار مجلس تأسيسي يتولى انتخاب استرادا رئيساً للجمهورية ودياز، عميل شركة التعدين الأمريكية، نائباً للرئيس، كرمى لعين الشكليات الديمقراطية على ما بدا. ثم شُكِّلَتْ لجنة على هوى وزارة الخارجية لتسوية سلسلة شكاوى مالية بارزة. كانت نيكاراغوا ستقبل قرضاً تقدمه المصارف الأمريكية كُفل جزئياً، وفق نموذج كانت أمريكا قد أنجزته سلفاً في سانتو دومنغو، بالموارد الجمركية التي كان أحد عملاء الولايات المتحدة سيحصِّلها. والتحكم بالموارد الجمركة كان يعني تحكماً فعلياً بمجمل حياة البلد الاقتصادية، مع امتلاك القدرة على حرمانه من الموارد حتى الموت جوعاً. وبعد عدد من الأشهر علَّق الوزير الأمريكي في ماناغوا يقول: إن "العواطف الطبيعية لأكثرية ساحقة من النيكاراغويين معادية للولايات المتحدة، بل وألمس لدى بعض أعضاء حكومة استرادا ارتياباً عميقاً، إن لم يكن انعداماً للثقة، إزاء دوافعنا"[20]. حاول المجلس القومي معارضة بنود المعاهدة عبر تعديل الدستور لقطع الطريق على قروض البنوك

الأجنبية. أجبر استرادا على الاستقالة وأبرق الوزير الأمريكي إلى وزارة الخارجية مؤكداً لها أن وجود "بارجة حربية ضروري للتأثير في المعنويات"، إذا كانت راغبة في تنصيب نائب الرئيس، دياز، خلفاً ـ وهو ما حصل بالفعل. في حزيران/يونيو 1911، تم الاتفاق على تعويم قرض بمبلغ 15 مليوناً من الدولارات من ممولين أمريكيين وإخضاع الدوائر الجمركية لإشراف أمريكا، فيما عكفت وزارة الخارجية على صياغة تفاصيل القرض مع اثنين من البيوتات المصرفية الأمريكية. كان الجزء الأكبر من القرض سيُوجه إلى تسديد ديون نيكاراغوا الخارجية العائدة لأوربيين وأمريكيين، فيما تتولى المؤسسات المصرفية الإشراف على تحسين الشبكة القومية للسكك الحديدية وإنشاء شبكة جديدة خاضعة لتحكمها. لم يكن حتى مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة مستعداً للإذعان لهذه الشروط، إذ رفض تصديق الاتفاقية ثلاث مرات. وبعد ذلك تم وضع اتفاقية جديدة، أكثر تواضعاً ومعدلة، منطوية على إبرام اتفاق شراكة بين بنك قومي نيكاراغوي معترف به وبين المؤسستين المصرفيتين الأمريكيتين؛ كانت نسبة 51٪ من أسهم البنك القومي ستؤول إلى الأمريكيين. كان القرض المقلّص سيُضْمَن برَهْنِ الجمارك ورسم على المشروبات الكحولية. هذه المرة لم تُطلب موافقة مجلس الشيوخ الأمريكي؛ تم وضع الأمر موضع التطبيق بأمر تنفيذي. جرى تعيين موظف أمريكي اقترحه البيتان المصرفيان مديراً للجمارك وبقي في المنصب على امتداد السنوات السبع عشرة التالية. كانت نيكاراغوا ستبقى دولة ـ أمة مستقلة ظاهرياً في باحة أمريكا الخلفية. إلا أن جملة التغيرات المختلفة التي طرأت على السياسة الخارجية الأمريكية والمصالح الكوكبية كان من شأنها أن تفضي، في عدد من المناسبات في العقود اللاحقة وصولاً إلى، وشاملة، ثمانينيات القرن العشرين، إلى

أشكال خفية وأخرى مكشوفة من اللجوء إلى وسائل عسكرية وتدابير مالية موازية تماماً في غرابتها وشذوذها لممارسة دبلوماسية الدولار بداية. أما النمط الذي ما لبث أن أصبح مألوفاً بالنسبة إلى النيكاراغويين، فقد جرى تبنيه، تكييفه وتطبيقه عبر أمريكا اللاتينية. وقد سبق للرئيس تافت أن علَّقَ في 1912، وهي السنة التي شهدت إرسال فرق مشاة البحرية (المارينز) الأمريكية لاجتياح كوبا، قائلاً: "مع أن على سياستنا الخارجية ألا تحيد قيد شعرة عن سراط العدل المستقيم، فإن من الممكن، بكل تأكيد، تضمين هذه السياسة نوعاً من التدخل النشيط من أجل ضمان تجارتنا وفرض الاستثمار المربح، لرأسمالييننا"[21].

يجري تجريد الأساطير من التاريخ، وهي بنى واعية تقدم موضوعات وأطروحات مهمة وذات شأن؛ تصريحاً وتلميحاً، تقوم بإيصال كتلة من الأفكار المشحونة بنوع من الوعي الأخلاقي والمعنوي. للأساطير خطوطها القصصية الخاصة التي تكتمل مع شخصيات نمطية معروفة وسيناريوهات مألوفة. إن وظيفة الأسطورة هي تيسير فهم الأحداث والظروف والعمل على الإحاطة بها في عالم الواقع عبر قراءتها في ضوء أفكار هذه الأسطورة، قيمها وتعاليمها الأخلاقية. وبهذه الطريقة تتم صياغة العالم المحيط بنا، يغدو متماسكاً، قابلاً للإدارة وذا معنى. فالأساطير تمنح إحساساً بالهوية وتساعد على الاهتداء إلى الطيبين والأخيار، على تجنب الأشرار وعلى معرفة الأسباب. وبمثل هذه المعلومات نصبح قادرين على تحديد أسلوب الرد أو الاستجابة؛ أمسكنا بالوسيلة التي تمكِّننا من ربط الحاضر بالماضي ومن اختيار مسار عمل يفضي إلى حصيلة مستقبلية مرجوة. غير أن الأساطير ليست، كما سبق لنا أن رأينا، رغم أنها مألوفة، متناغمة

ومريحة، التفسيرات الممكنة الوحيدة للأحداث. فمن شأن ما يُجرد أحياناً من التاريخ لاستخدامه أسطورة داعمة قد لا يكون سوى كِذْبَة مكشوفة. وأسطورة أن أمريكا قوة عظمى رغماً عنها، أمة "فُرضت العظمةُ عليها فرضاً" ليست، كما قال المؤرخ إيرنست ماي، سوى فكرة منحازة، أنانية وخادعة للذات آخر المطاف. وقد زعم ماي أن أمريكا لا تتصرف وفقاً لمنطق محدد سلفاً بل هي تنفعل بالظروف، وقد حققت التفوق لا التماساً واعياً له بل نتيجة غير مقصودة مترتبة على أفعال تَمَّتْ المبادرة إليها إما دفاعاً عن النفس أو نيابة عن آخرين[22]. تماماً مثل هاري مورغان. تبدأ معزوفة أسطورة القوة العظمى رغماً عنها المألوفة في 1898، حين أَقْدَمَت الولايات المتحدة على تبني خيار الحرب لا لشيء إلا لأن أعمال نهب الجنرال الإسباني في كوبا ويلر أصبحت لا تُطاق. وفيما بعد، في 1914، بقيت الولايات المتحدة محايدة، ولم تتدخل إلا بعد قيام ألمانيا بانتهاك حقوق الولايات المتحدة الحيادية؛ إلا أنها أقدمت على هذا التدخل لأغراض غَيْريّة نبيلة: إنهاء الحرب وجَعْل العالم آمناً للديمقراطية. وفي 1939 بقيت الولايات المتحدة متفرجة إلى أن استفزها هجوم اليابان المباغت على بيرل هاربر؛ غير أنها لم تبادر، مرة أخرى، إلى الانخراط في النزاع إلا لاستئناف حملة صليبية لمصلحة الديمقراطية. فأسطورة القوة العظمى رغماً عنها لا تحول دون، ولا تغفل عن تأكيد حقيقة أن النصر لم يتم بلوغه وأن الغاية النبيلة لأمريكا بوصفها أمة لم تتحقق إلا بفضل تدخل هذه الأمريكا. حقاً، نرى أن أسطورة القسر أو الإكراه تساهم في تعظيم، بدلاً من تقليص، عامل الإحساس بالرضا المستمد من مثل هذه القراءة للتاريخ. باطراد يبقى الشر حافز التحرك والتدخل الأمريكيين؛ فيبقى الشعب الأمريكي

مطمئناً إلى أن أمته خَيِّرة، طيبة، تنطلق من دوافع غيرية ونبيلة وفقاً لقيمها المقيمة.

غير أن هناك، كما سبق لنا أن بيَّنّا، نوعاً من التماسك الكامن في عمق جملة أهداف السياسة الخارجية الأمريكية ـ من الآباء المؤسسين إلى روزفلت، ماهان، بفريدج وهاي، وصولاً إلى وليم تافت والاعتماد الرسمي لدبلوماسية الدولار كما إلى ميثاق وودرو ولسن الأخلاقي الداعي إلى نظام كوكبي قائم على "حرية جديدة". إن التطمينات ومشاعر الإلْفة واضحة وضوح الشمس؛ إنها واردة على ألسنة الجمهوريين والديمقراطيين. وكما سوف نرى في الفصل الخامس قام الرئيسان هاري إس. ترومان ودوايت دي. آيزنهاور بإعطاء المشروع دفعة قوية. ثم جاء سقوط جدار برلين في 1989 وتفكك النظام الشيوعي فتوفرت فرصة أخرى لتحقيق هذا الحلم. سارعت إدارتا جورج إتش. دبليو. بوش وبل كينتون إلى إحياء المشروع بزخم جديد ـ فمع أن توجه سياسة الولايات المتحدة الخارجية كان من قبل توجهاً دفاعياً في المقام الأول، بات الآن توجهاً هجومياً إلى حد كبير. يقول آندرو باسيفيتش:

> مع أنه مُتَبَّلٌ بمنكِّهات لفظية مستحدثة رامية إلى الإيحاء بنوع من الجدة والأصالة، فإن المفهوم السياسي ـ الاقتصادي الذي تتبناه الولايات المتحدة اليوم لم يتغير منذ قرن كامل من الزمن: إنه السعي المألوف لإيجاد "عالم مفتوح"، التكامل التجاري الضروري ضرورة طاغية، الإيمان بأن التكنولوجيا تؤهل الولايات المتحدة لاحتلال مكانة مميزة في ذلك النظام، وتوقع احتمال قيام الجيش الأمريكي بالحفاظ على النظام وفرض القواعد. وتلك

السياسات تعكس تصميماً فريداً على توسيع هيمنة أمريكا وإدامتها على مختلف الصعد السياسية، الاقتصادية والثقافية في إطار عالمي ـ وهي الهيمنة التي يجري التعبير عنها عادةً بكلمة "قيادة".[23]

تُوَظَّفُ أسطورةُ البطل رغماً عنه لتمويه حقيقة أن أكثرية الأمريكيين تؤمن فعلاً وبقوة بأن أمريكا يحق لها أن تكون إمبريالية. ثمة أهلية فطرية في أمريكا أفرزتها مبادئها التأسيسية التي تجعلها الأمةَ الجديرةَ باحتكار حق التفوق. وأسطورة البطل رغماً عنه هذه لا تحقق هذا القَدْر الكبير من النجاح لأنها تؤكد بأن هذه البطولة هي طبيعة أمريكا بالذات: ما إن تنشأ الظروف، حتى تبادر أمريكا إلى النهوض والمبادرة ـ تماماً كما فعل هاري مورغان ـ إلى تقديم المساعدة الملائمة للجميع. فحيثما يستوجب الأمر معاينة الدوافع والأداء، تتدخل ضبابية الأسطورة السديمية لتوفر تأكيداً جاهزاً لقدرة الانعكاسات الطبيعية، الفطرية على التمخض عن الاستجابة السليمة إذا ما دعت الحاجة، وحين تدعو، إلى الفعل أو التحرك. تعمل الأسطورة على تجذير الحساسيات الأمريكية إزاء مضمون تاريخ الانخراط الأمريكي في باقي العالم، وفيما يخص المبادئ المطردة التي يقوم عليها أو يعمل وفقاً لإملاءاتها. لعل ما هو أهم، أن شيوع أسطورة الإكراه أو القسر يساهم في إكساء أسطورة راسخة أخرى يستمد منها زخمه: الأسطورة الداعمة لكيان الأمة، للرسالة، للغاية المسيحانية المهدوية ـ الناموس الرابع للميثولوجيا الأمريكية. إذا كانت أمريكا هي فكرة أمة مثالية حقاً، فإن ذلك يعني أن الديمقراطية الأمريكية يحق لها أن تكون إمبريالية وأن تعبر عن نفسها من خلال كيان إمبراطوري. وهاتان الأسطورتان تتضافران لتمكين الأمريكيين من امتلاك أكثر أنماط الحياة وفرة في كل

تاريخ البشر. حيوات الأمريكيين متخمة بالسلع؛ اهتماماتهم، مخاوفهم وهواجسهم تتعرض للاستيعاب والإلهاء بمستلزمات الحفاظ على أنفسهم في زحمة نمط حياة استهلاكي قائم على المنافسة والتصاعد المحموم. ثمة عدد كبير من الأمريكيين يفضلون على ما يبدو، مثلهم مثل هوارد هوكس، الاكتفاء بالاستمتاع، لا بالانشغال بالأفكار ولا بالانحياز إلى هذا الطرف أو ذاك في أي جدل مثقف ومطَّلع على ما أدى إلى جَعْل أمتهم وحيواتهم من نتاجات الإمبراطورية.

obeikandl.com